من جماليات الخطاب اللساني العربي في شعر ابن زيدون
– الإضمار انموذجاً –

د. صالح ويس محمد
جامعة الموصل – كلية التربية للعلوم الإنسانية

تاريخ الاستلام ٢٠١٣/٩/١٧ **تاريخ القبول** ٢٠١٣/١١/١٢

الملخص

الإضمار دون الاستتار في الظهور؛ فالاستتار موجود من وجود دليل عليه يقدر دون خلاف؛ كونه محدد التقدير، أما الإضمار فأن غيابهُ دون التزام، ويكون في النص من سياقه، أو من مناسبة القول، وهو تأويلٌ يفهم من السياق، بقدر فهم المتلقي لهذا النص ووثوبه على سطح النفس، بروزه أو غيابه.

والإضمار، تغيب عنه اللازمة التي تحدد حرفية المعنى فيه، كونه يعتمد في إظهار معناه على مجموعة من الإيحاءات والملامح للمضمون المضمر فيه المعنى؛ لذلك هو إستراتيجية ومسلك لاشتقاق المطلوب من المعاني لا بحدس تلقائي بل باستدلال منطقي يتفاوت بحسب ألوان الإضمار ويتوصل إلى ما هو مستبطن في ذات المتكلم والمخاطب من متغيرات تؤدي دور الموجه الأول للنص، فتخصص معانيه العامة المحتملة وتقرأ ما وراء المعنى البارز في العبارة اللغوية، ليتجاوز بذلك القياس الصوري والقواعد الثابتة الدلالة، من خلال قواعده المتغيرة التي تتبع من كثافة المضامين ورسوها وتعدد احتمالاتها.

في الإضمار

مع كون النصِ إنتاجاً لمعنى مقصود يُعنى " بالمعنى المفهوم من ظاهر اللفظ الذي يفضي الى معنى ثانٍ "[١]، يتكون من المعنى الأول/ الظاهر أو من مجموعة من الايحاءات والملامح للمضمون المضمر فيه، الا أنه استراتيجية ومسلكٌ لاشتقاق المطلوب من المعاني لا بحدس تلقائي بل باستدلال منطقي يتفاوت بحسب ألوان الإضمار ويتوصل الى ما هو مستبطن في ذات المتكلم والمخاطب من متغيرات تؤدي دور الموجه الاول للنص، فتخصص معانيه العامة المحتملة وتقرأ ما وراء المعنى البارز في العبارة اللغوية، ليتجاوز بذلك القياس الصوري والقواعد الثابتة الدلالة، من خلال قواعده المتغيرة التي تتبع من كثافة المضامين ورسوها وتعدد احتمالاتها [٢]؛ لأن الإضمار " لون من ألوان الخطاب المكثف"[٣]، و"وسيلة من وسائل .. الاقتصاد، يقوم على مبدأ الاستبدال، أي استبدال عنصر بآخر، بحيث يكون العنصر البديل عنصراً عاماً يمكن انطباقه على العنصر المحدد في الفقرة سابقاً، أو لاحقاً أو حال في الفقرة منطقاً بأن يكون ملازماً من ملازمات عنصر فيه (كذا)"[٤]، متجاوزاً المعنى الثابت الذي يلازم المعنى المعجمي للمفردات اللغوية ومن ثمة فهو " ما يحمله النص من قيمة توصيلية، ويمثل تعبيراً يتجاوز مستوى المعنى الصريح المجرد، وذلك يتم بمقتضى ما يشير اليه النص "[٥]، فيفهمه متلقيه ويحدده من خلال تحاوره وتفاعله مع النص فضلاً عن الروية في إنتاج المعنى والتمعن في النص المبدع والمعاني المضمرة المتعددة التي يحملها النص حتى نصل الى أهم المعاني وأبرز الدلالات، وهذه النصوص لا نصل الى معانيها بدلالة ألفاظها وحدها، ولكن يدلنا اللفظ على معناه المعجمي الذي يقتضيه موضوعه في اللغة[*]، ثم نجد لذلك المعنى دلالة ثانية نصل بها الى مضمر النص ومعناه، فيزداد جمالية الى جماليته ومنعة الى منعته؛ لأنه يضمن المعنى دون مباشرته لـ " يعتمد التكوين المضمر في تكوينه الثاني التكوين التأويلي على مجموعة من الجمل، أي تشتمل عملية استيعاب بعض الأقوال

---

(١) ينظر: دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني: ٢٠٢-٢٠٣.

(٢) ينظر: الخطاب اللساني العربي: ١/ ٦٤.

(٣) المصدر نفسه:١/ ١٣٢.

(٤) نحو النص نقد النظرية ... وبناء أخرى: د.عمر ابو خرمة: ١٧٢.

(٥) اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب ... إلى المكبوت، محمد عزام:٣٣.

(*) ذكر الجرجاني هذا المعنى في باب الكناية والكنائية ملمح من ملامح الإضمار في التراث العربي، ينظر: دلائل الإعجاز: ٢٦٢.

على فهم أقوال أخرى تعتمد الى انشائها على ضوء الأقوال الأولى "[١]، فيتضافر بذلك المعنى الظاهر المعنى الاول والمعنى المضمر المعنى الثاني في إنتاج دلالة النص.

لذلك ففي الإضمار تتجاوز الفائدة المتكلم والمخاطب الى الخطاب اللغوي نفسه، وذلك "من خلق روابط لغوية جديدة وايداع شيكات دلالية فريدة، وتوسع مجالاتها، كلما فاض الخطاب اللغوي أفعال لغوية متعددة، وكلما جنح وأمتد من المستوى الصريح الى المستوى المضمون من القول "[٢]. والمعنى المضمر يكون متضمناً في النص أو موجزاً به لغايات يقتضيها النص، أو غايات جمالية يقتضيها التعبير، فـ " كثيراً ما يستخرج المضمر في تحليل الخطاب من ملفوظ محدد أو على معلومات مستقاة من سياق اللفظ "[٣]، أي انها استراتيجية لغوية قبل كل شيء تقوم على شيء من المراوغة اللغوية في بيان شيء من معالم المعنى وترك الباقي للقراءات التأويلية التي ينتج عنها المعنى، والتي هي " احتمال من وجوه احتمالات عديدة تقوم على متابعة العلاقات الداخلية للنص وأنظمته، ورصيد مسارات الدلالات وبيان تواشجها العلائقي على مستوى الدلالة الضمنية للنص "[٤]، وبهذا تكمن جمالية الاضمار في تجاوز الموضوع لمقتضى الكلام، وهو ما يجعل العلاقات في النص جمالية بحتة، تتكامل فيها التكوينات النصية " لتطرح الانتاج الدلالي في اطار تجربة مكتملة قد تتعدد فيها الاغراض، بل تتناقض وتتنافى، لكنها في النهاية تكون لوحة متكاملة "[٥]، هذه اللوحة تتكون من " مركبات تركيبية دلالية، وذلك بانتظام العلاقة داخل التركيب، أو من قيمتها الاستعمالية"[٦]، وبهذا يكون الإضمار معنى يتجاوز المعنى المعجمي للألفاظ في النص، يتكون عنها، وبشيء من دلالاتها يقوم على قراءة المضمون قبل قراءة الكلمات، فضلاً عن قراءة البنية غير اللغوية في النص، لهذا " لا تتم عملية الاستخلاص من الفراغ، بل لا بد لها من وجود مادة مجردة بموجبها يستطيع المتكلمون استنباط المعاني المضمرة، وهذه المادة هي المعنى الحرفي الذي تتوفر عليه العبارات الأصل، ويتكون المعنى الحرفي من ذلك المعنى الذي تنتهي اليه العناصر المعجمية في العبارة الأصل بعد ضم دلالاتها في وحدة دالة "[٧]، تتعدد بها نواتج

---

(١) المضمر، كاترين كيريرات:٣٠.

(٢) الخطاب اللساني العربي:٢/ ٢٦.

(٣) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومنيك مانغوتو:٧٣.

(٤) اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب ... الى المكبوت:٣٥٣.

(٥) موسوعة النحو والصرف والاعراب: أميل بديع يعقوب:١٠٨.

(٦) الخطاب اللساني العربي:١/ ١٩٠.

(٧) المصدر نفسه: ١/ ١٨٧–١٨٨.

النص؛ هذا التعداد يكون من احتمالية المعنى فيها وعدم يقينيتها، ليكون الإضمار " عنصراً مهماً في ضمان النص ونموه "[١]، ويتحقق في النص من:

أ- **الإخفاء:** وتكون قصدية الاضمار فيه من خلال استتار المعنى المراد نقله في تصرف من المبدع، ويتم بأسلوب يتجاوز المباشر في إظهار مطلوبه، وقد يكون الاخفاء من غير قصد، فيكون سمة عفوية لها جماليتها الخاصة، يوضح ذلك، فضلاً عن طبيعة الاضمار الترسمية الأتية[٢]:

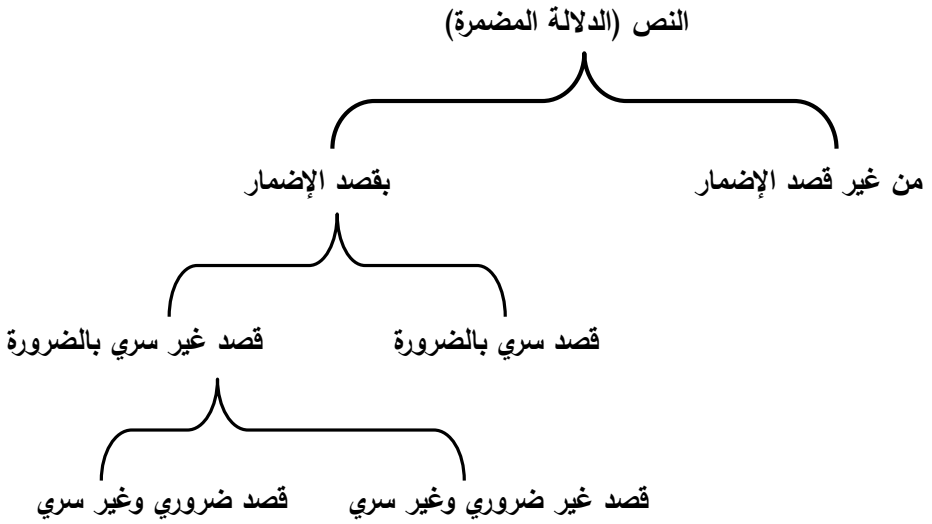

ب- الإلماح: ويحمل في النص، فضلاً عن قيمته الجمالية وتكوينه الإضماري قيمة أسلوبية ينماز بها المبدع عن غيره، وهو ما يظهر في النص من إشارات تكشف المعنى المضمر أو جانباً منه[٣]، أو حتى بيان إضمار نبحث فيه عن الإضمار الذي يريده المبدع.

---

(١) لسانيات الخطاب، أ.د.نعمان بوقرة:٤٧.

(٢) ينظر: الخطاب اللساني العربي ١٣٠/١.

(٣) ينظر: انساق التداول التعبيري:د.فائز الشرع:٣٠٨ ، والخطاب اللساني العربي:١/ ١٣٠. ١٣٠.

– في التواصل الاضماري:

ان الهدف الاساس من أية عملية خطابية هو خلق تواصل فيما بين المتخاطبين بقصد احداث نمو في معلوماتها المضمرة فيما بينهما أو المعلنة، وهو ما لا يتم الا بوجود قدرة تواصلية بينهما[١]، والتواصل الاضماري يقوم " عندما يطمأن الى قدرة المتلقي على فهم العنصر المختصر "[٢]، وهذا الفهم يقوم على[٣]:

- معلومات افتراضية من المرسل.
- خلفية إضافية عند المرسل إليه.
- الماح محدد يُحدد المضمر من خلاله.
- وجود رصيد معرفي مشترك بين طرفي التواصل الاضماري يستغل في التواصل اللساني وفي تفكيك العبارات وتركيبها، فيكون عندنا:

متكلم ⟵ رصيد معرفي ⟵ المخاطب

فضلاً عن قدرة المتكلم على بناء المعنى المضمر وتواصله مع المخاطب، فهو من يكشف الجانب الاضماري في النص ويحدده.

وبذلك يقوم التواصل الإضماري على: (المبدع، النص، المتلقي) ولكل واحد من هذه الاركان الثلاثة دوره المتميز والمتغاير عن الآخر؛ فالمبدع عليه أن يقوم – لضمان التواصل الإضماري – بنشر المعنى حتى يتم تفكيك المضمون واستخراج المضمر، وعلى المتلقي الالمام بشيء من السياق فضلاً عن امتلاكه قدرات لسانية ومنطقية وتخاطبية، والنص يمثل الركيزة الاساس التي ينتج عنها الإضمار، وإن كان هو مادة منتجة، ويكون ذلك من مراعاة:

١– الركيزة اللغوية للمحتويات التي يتضمنها النص.

٢– وضعها، سواء كانت افتراضاً أو مضمنة.

٣– تكوينها، أي الاليات التي تُرسي أسس استخراجها؛ لذلك يعد التواصل الإضماري ظاهرة ملازمة للخطاب اللغوي[٤]، حتى الاخباري منه، فيدخل الإضمار بذلك في

---

(١) ينظر: الاستلزام الحواري في التداول اللساني: العياشي ادراوي:٢٢.

(٢) نحو نقد النظرية ... وبناء أخرى، ١٧٣.

(٣) ينظر: المضمر، ٥٧ ؛ والخطاب اللساني العربي:٢/ ٣٨٠.

(٤) ينظر: المصدر نفسه:٢١، والخطاب اللساني العربي:ج١٣٤:١: ج٤٢٣:٢–٤٢٤.

صميم التواصل اللغوي؛ كونه " مبدأ عاماً وقاسماً مشتركاً بين الظواهر اللغوية المختلفة "[١].

وفي قصيدة بلغ عدد أبياتها (٥٦)[٢] بيتاً يمازج ابن زيدون فيها بين إضمارها وإظهارها في محاور أربع.

يبدأ المحور الأول بمقدمة غزلية يذكر بها حاله مع ولادة الحبيبة بقوله:

مـــا جـــال لحظـــك فـــي ســـنا القمـــر إلا ذكرتـــك ذكـــر العـــين بـــالأثر

والتشبيه في هذا البيت مقلوب " يغدو فيه القمر بإضاءته أثر للمحبوبة ووضاءتها، كاشفاً عن مقارنة أولية تتعلق بالكشف عن انعكاس الاشياء في مرآة قلب المبدع "[٣]، وحقيقة هذا الانعكاس تتمحور في المحور الثالث قاعدة القصيدة التي تتمحور حولها بقية المحاور كما سيأتي وولادة المحبوبة في هذا المحور من القصيدة تعطي ابن زيدون الواقع المتخيل الذي يساهم في خلاصة من الواقع المعيش، غياهب السجن وظلمته.

لكن، ولادة الحبيبة في هذا البيت وما يليه تشكل خطاباً مباشراً يستعدي خطاباً ثانياً مضمراً في ثنايا الأبيات، فابن زيدون يقول مصوراً ولادة وشيئاً من مواطن جمالها:

والصَّـــدرُ مُـــذْ وردت رفهـــا نواحيـــه تـــوم القلائـــد لـــم تجـــنح إلـــى صَـــدَر

فالمعنى الظاهر معناً مباشراً أبعد كل البعد من شاعر مثل ابن زيدون ان يقصده، وهو زينة ولادة وقلائدها، وبذلك يكون ابن زيدون متحسراً على جمال مادي حسي يفنى ويزول بغياب أحد الطرفين ولادة او ابن زيدون وهو ما حدث، أكد ذلك قوله:

منـــىً كـــأن لـــم تكـــن إلا تـــذكرها إن الغـــرام لمعتـــاد مـــع الـــذكر

لكن أن تكون الابل معادلاً موضوعياً لابن زيدون في هذا الجزء من اللوحة يتحمل الخطاب مضمراً موجهاً إلى ولادة ينص على انها ما كانت إلا (رفها) لا لحاجة، بعد عنها متى أراد وفي صده عنها لا رجوع، وهو المعنى الذي يتطلبه السياق لا سيما ان القصيدة موجهة الى ابي الحزم بن جهور وولادة عنده سببُ سجن ابن زيدون في التهمة الرئيسة التي زج بسببها في السجن وإن كان هناك تهماً أخرى لفقت له[٤]، فيكون غزل ابن زيدون في

---

(١) الخطاب اللساني العربي:٢/ ٢٦.

(٢) الديوان:٣٣٨- ٣٤٣.

(٣) بناء المفارقة، د.أحمد عادل عبد المولى: ٢١٦.

(٤) ينظر: تجربة السجن في الشعر الاندلسي:رشا عبد الله الخطيب:٢٠٧.

مجموع أبيات المحور الاول من باب ذكر محاسن ولادة الحسية وان بدأ ظاهر الأبيات الشوق والحنين لها، مع ذلك تحمل الأبيات الغزلية معناً ثانياً مضمراً يمكن استنتاجه من قوله:

فليـــــت ذاك الســـــواد يطـــــول لـــو اســـتعار ســـواد القلـــب والبصـــر

فأي ألم يعيشه ابن زيدون ليمنى ذلك، فتكون تذلك اللوحة الغزلية المصرح بها والتي تقوم على ماضٍ سعيد وحاضر بائس متغير به، ما هي في الحقيقة إلا لوحة مضمرة لحياة ابن زيدون السياسية وتعثره بها وسبب ذلك صبوة جامعة، ونظرة إلى مطامح سياسية عالية تكونت مع همة ابن زيدون لنيل العلا أوردته مورد الموت الزؤام المحقق[1]، أكد ذلك قوله:

أمـــا الضـــنى فجنتـــه لحظـــةٌ عَـــنَنٌ كأنهـــا والـــردى جـــاءا علـــى قَـــدَرِ

أما المحور الثاني فيبدأه بقوله:

مـــن يســـأل النـــاسَ عـــن حـــالي فشـــاهدُها محـــض العيـــان الـــذي ينبـــي عـــن الخبـــر

لـــم تطـــو بـــرد شـــبابي فـــي كبـــرةٌ وأرى بـــرقَ المشـــيب اعتلـــى فـــي عـــارض الشـــعر

وهنا يشكل ابن زيدون صورته وما آلت إليه حاله ولكن من السائل الذي يود ابن زيدون اخباره عن حاله؟ يمكن أن تستبعد ولادة الحبيبة والعدو الشامت به، إذ لا يمكن أن يخبر ابن زيدون الحبيبة الغائبة التي كانت سبباً من أسباب سجنه أنه ضعيف وأنه بحاجة إليها وهو بقبضة ابن جهور؛ اعداء والبقاء الأموي وعودته إلى الحكم، كذلك لا يُخبر شامته بضعفه في سجنه، لذلك يكون الخطاب موجهاً إلى:

١– ابي الحزم بن جهور، فتكون صيغة الخطاب الألم والتذلل والاعتذار طلباً للعفو والصفح.

٢– الوليد بن ابي الحزم الصديق المقرب، فتكون صيغة الخطاب طلب المساعدة والتدخل لإخراجه من السجن وهو ما حدث فعلاً فيما بعد.

يكوّن بعدها ابن زيدون المحور الثالث من القصيدة، ويكون بمثابة ثيمة توجه النص توجيهاً محدداً ويبدأه بقوله:

مـــا للـــذنوب التـــي جـــاني كبائرهـــا غيـــري يحملنـــي أوزارهـــا وزري

مـــن لـــم أزل مـــنْ تأتيـــه علـــى ثقـــة ولـــم ابـــت مـــن تجنيـــه علـــى حـــذر

الكـــاظم الغـــيض ينســـاب الضـــمير لـــه لـــو لا الأنـــاة ســـقاه مـــن دم هـــدر

حتى يقول:

وزيـــر ســـلم كفـــاه يمنـــه طـــائره ســـؤم الحـــروب ورأي محصـــد المـــرر

(١) ينظر: بناء المفارقة، ٢١٦، ٢١٧.

اغنـــــت قريحتـــــه مغنـــــى تجاربـــــه ونابـــت اللمحـــة العجلـــى عـــن الفكـــر

وينهي بقوله:

والـــبس مـــن النعمـــة الخضـــراء ايكتهـــا ظـــلاً حرامـــاً علـــى الارمـــاض والخـــدر

نعـــيم جنـــة دنيـــا، إن هـــي انصـــرمت نعمْـــتَ بالخلـــد فـــي الجنـــات والنهـــر

بلغت أبيات هذا المحور (٣٣) بيتاً، وبذلك تقارب ثلثي القصيدة، فتكون الموضوع الاساس لها، وفي هذا المحور يبدو الجانب الاضماري جلياً، ويقسم في اتجاهين: يكون الأول في ابي الحزم بن جهور الحاكم العادل الفطن الذكي مع ابن زيدون الشاعر المخلص لأبي الحزم فتكون عندنا معادلة واضحة يجتمع فيها طرفان متناقضان هما:

وفاء ابن زيدون ابي الحزم بن جهور ظلم ابن زيدون

فيكون طرفا المعادلة ابن زيدون الوفي الذي من شأنه أن يقابل بالاحترام والمال والمكانة السياسية والاجتماعية، نجده يقابل على العكس من ذلك بالظلم والسجن ومصادرة الأموال، فتكون بذلك علاقة ابن زيدون مع الحاكم ابي الحزم بن جهور القاعدة التي تتفرع عنها الأطراف الأخرى:

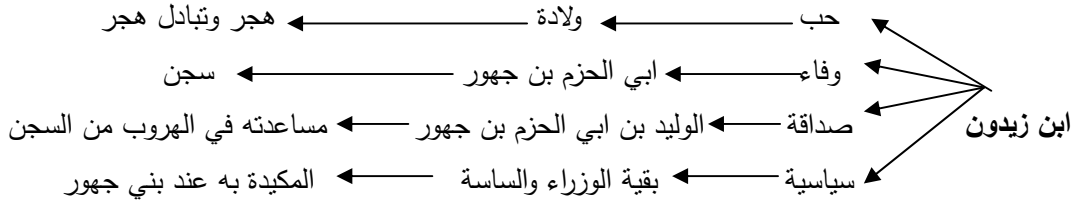

جميع هذه الاطراف تلتقي عند ابن زيدون وعلاقته ببني جهور مبنية عليها، مع ذلك يسعى ابن زيدون وهو في السجن إلى مدح ابا الحزم بن جهور ووصفه بالعدل والفطنة والذكاء لتأتي صورة " الحاكم العادل المعروف بشيمه المعهودة ... مما يفجر طاقات المفارقة في القصيدة، إذ لو كانت صورة المظلوم في مقابل صورة الظالم، فلا مفارقة حينئذٍ، لكن الواقع أن صورة المظلوم – هنا – جاءت مقابل صورة العادل "[(١)]، هذه المفارقة ترسم صورتين مضمرتين متضادتتان مع قصيدة ابن زيدون:

– فإما أن يكون ابن زيدون قد اشترك في الثورة الأموية ضد بني جهور فاستحق السجن، فيكون ابن الحزم عادلاً.

(١) بناء المفارقة:٢٢٠.

– أو أنه لم يشترك في الثورة، فيكون مظلوماً، وهذا يعطينا نتيجة مغايرة للحكام، فهو –وإن مدحه ابن زيدون بالعدل والذكاء– حاكم ظالم لابن زيدون يسمع من وزراءه ومكيدي ابن زيدون دون دراية يؤكد ذلك التهمة الموجهة إلى ابن زيدون " وهي محاولة الاستيلاء على أرث وعقار "[1]، وهذه التهمة لا تستحق السجن وتحلُّ بدفع المال إن ثبتت، فضلاً عن لأنها لا تستحق السجن مدة تطول عن الخمس مئة يوم، واعتراض ابن زيدون على هذه التهم بقوله:

مـــا للـــذنوب التـــي جـــاني كبائرهـــا غيـــري يحملنـــي أوزارهـــا وزري

فيكون جزاء ابن زيدون على ماضٍ عاشه مع ولادة التي خلفت له أعداءً على اتجاهين: تمثل الاتجاه الأول في بقية الشعراء والساسة الذين التقاهم ابن زيدون في دار ولادة وهم السبب في عداء ابن جهور له ووضعه في السجن، فضلاً عن كره ابن جهور لولادة الأموية.

وفي المحور الرابع الذي سبقت أبياته أبيات المحور الثالث في القصيدة يقول ابن زيدون:

لا يهنـــئ الشـــامت المرتـــاح خـــاطره أنـــي معنـــى الأمـــاني ضـــائع الخُطـــرِ

هـــل الريـــاح بـــنجم الأرض عاصـــفةٌ؟ أم الكســـوف لغيـــر الشـــمس والقمـــر

إن طـــال فـــي الســـجنِ إيـــداعي فـــلا عجـــب قـــد يـــودع الجفـــن حـــد الصـــارم الـــذكر

وإن يثـــبط – " ابـــا الحـــزم " الرضـــى – قـــدر عـــن كشـــف ضُـــري فـــلا عتـــبٌ علـــى القـــدر

مع كل ما في ابن زيدون من ألم وحسرة وفراق، حتى حبيبته التي اعطاها عهداً – كما سبق وبينا – بقوله[2]:

كمـــا تشـــاء فكـــن لـــي منـــتقلاً لا تخـــشَ منـــي نســـياناً ولا بـــد لا

اصبحت خيالاً أكثر لا تخلو علاقتهما في أحايين كثيرة من تبادل الهجاء، مع كل ذلك نجد ابن زيدون قوياً يتوعد كل شامت بعد خروجه، فالأمور العظيمة لا تصيب إلا كل عظيم، ابن زيدون من العظماء، وأن ذرت به الحال، فقد يودع الجفن الصارم الذكر.

بعد بيان شيء من المحاور الأربعة تتشكل لنا ثلاثة أطراف تدور حولها المحاور: ابن زيدون، ولادة، بني جهور، وكل واحد من هذه الاطراف يأخذ مسارين:

---

(١) تجربة السجن في الشعر الاندلسي: ٢٠٧.

(٢) الديوان: ٢٣٩.

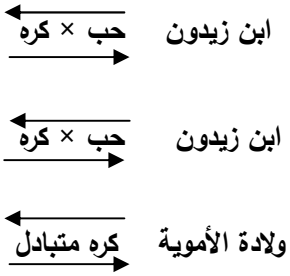

والرابط بين هذه الاطراف ابن زيدون؛ كونه يمثل حلقة الوصل بين ولادة/ الحبيبة/ الأموية وابي الحزم الخليفة السالب للملك الأموي في قرطبة.

لذلك نرى ابن زيدون يعاني من عدم القدرة على الجمع بين الطرفين: الحبيبة والخليفة، فهو " مثالي لا يتنازل عن موقفه ويعمل كما لو انه يملك سيطرة تامة على مجرى الاحداث التي في الواقع معقدة جداً، ولا يمكن السيطرة عليها، لذلك فقد واجه الفشل "[(١)]، مع ذلك فإن مستقبل ابن زيدون في علاقتيه انتج لنا أدباً جماً وخالداً.

ومن خلال المحاور الثلاث الأولى نجد ان ابن زيدون يعاني من أزمة نفسية على صعيد عاطفي – وهو الأساس – وسياسي، لذلك هو مبتلى على الصعيدين، فلا يستطيع وصل الحبيبة ولا الخليفة مع أنه قاعدة يجتمع فيها الطرفان، لذلك مثَلَ ابن زيدون في قصيدته حالة مهمة من حالات المجتمع الأندلسي والخلافات التي كان يعشيها أفراده.

فولادة سليلة البيت الأموي الحبيبة في هذه القصيدة يمكن أن يُحمل غزل ابن زيدون بها محمل التشهير لإرضاء ابن جهور الخليفة الذي يملك زمام الأمور، فضلاً عن كون هذا الغزل يقوم على ماضٍ متخيل في غياهب السجن، فيكون وصله محاولة لإثبات الذات التي غيبها ابن جهور فبغزله بولادة –وإن كان متخيلاً – يمثل تحدياً ولا مبالاة بابن جهور، لا سيما وأنه وصفه بالعدل والحكمة والذكاء والفطنة، مع ظلمه لابن زيدون، وبذلك يكون هذا المدح شيئاً من المعنى المضمر؛ لأن وصل ولادة والتغزل بها وحده دليل على تحدي ابن جهور، وبذلك تكون العلاقة الثلاثية الاطراف العنصر المهيمن الذي تدور حوله المحاور الأربعة، وبذلك يكون ابن زيدون في علاقته بالطرفين علاقة متضادة لا يمكن الجمع بينها، لذلك كان عليه أن يخسر أحدهما إذ ما اختار الثاني حتى خسرهما مع بعض، فضلاً عن خسارته لنفسه في لحظات حتى وصل إلى بني عباد، وذلك بسبب محور العلاقة الذي يقوم على الكره بين ولادة

(١) الهجر والوصل في غزليات ابن زيدون: سرور أحمد السويري:٤٢

الاموية وابي الحزم بن جهور، وابن زيدون يمثل محور هذه العلاقة وحلقة الوصل بينهما، بغض النظر عن علاقة ابن زيدون بكل طرف.

كذلك يصف ابن زيدون علاقته بولادة بقوله[1]:

لعمـــري لـــئن قلّـــتْ اليـــك رســـائلي لأنـــت الـــذي نفســـي عليـــه تـــذوب

فـــلا تحســـبوا إنـــي تبـــدلت غيـــركم ولا أن قلبـــي مـــن هـــواك يتـــوب

فظاهر الرسالة انقطاع التواصل، وان ابن زيدون باقٍ على عهده لم يتغير، فلم انقطع الوصل!

فهل أن ابن زيدون:

بقي على عهده دون وصلها = تركها وإن بقي حبه لها

تاب عن وصلها ولم يتب عن هواها

جفوته لها قصدية يتلذذ بألمها ويتأكد من حبها له

نفسي عليه تذوب هل ان ابن زيدون:

هجرها دون إرادته للأسباب السياسية ومتعلقاتها

هجرها يمنع بهرجها كلام الوشاة

هجرها لبعد مكاني يحول دون الوصول إليها

ثم يصرح بحبها وبقائه عليه في البيت الثاني:

فـــلا تحســـبوا إنـــي تبـــدلت غيـــركم ولا أن قلبـــي مـــن هـــواك يتـــوب

فقلبه عن هواها لا يتوب:

أحب غيرها وبقيَّ على حبه لها " أحب امرأة "

أحب غيرها وبقيَّ على حبه لها " أحب السياسة والمنصب ودار الملك "

بقيَّ على العهد وترك الوصال عودته إلى الحب العذري

بقيَّ وترك الرسائل المادية وغيرها

حركة العلاقة ونموها العدائي بين ولادة الأموية وبين بني جهور، وعلاقة ابن زيدون بهما وعلاقتهما به إنتاج شعري ثرٌ لا ينضب وإبداع دائم التجدد، ونصوص مفتوحة تتعددُ معانيها بتعدد قرائها.

---

(١) الديوان:٢٤٤.

ويقول ابن زيدون في ولادة أيضاً[١]:

يـا مـن غـدوت بـه - فـي النـاس - مشـتهرا قلبـــي عليـــك يقاســـي الهـــمَّ والفكـــرا

إن غبـــت لـــم ألـــقَ انســـاناً يؤنســـني وإن حضـــرت فكـــل النـــاس قـــد حضـــرا

يجعل ابن زيدون في هذا النص من ولادة قيمة مغايرة عن بقية الناس في الحضور والغياب والأمل الذي ينشدهُ، يتمثل حضور ولادة عند ابن زيدون في الحياة العاطفية والسياسية والاجتماعية والأدبية على حد سواء[٢]، لذلك كان حضورها حضور الناس وغيابها غيابهم، وهي المرأة التي يمثل وصلها قمة السعادة وبداية المعاناة؛ لأنها المرأة الفاتنة بجمالها الحسي والمعنوي المتمثل بمكانتها السياسية والاجتماعية، وتمثل الترسيمة الأتية مثلت المحبة لهذه العلاقة[٣]:

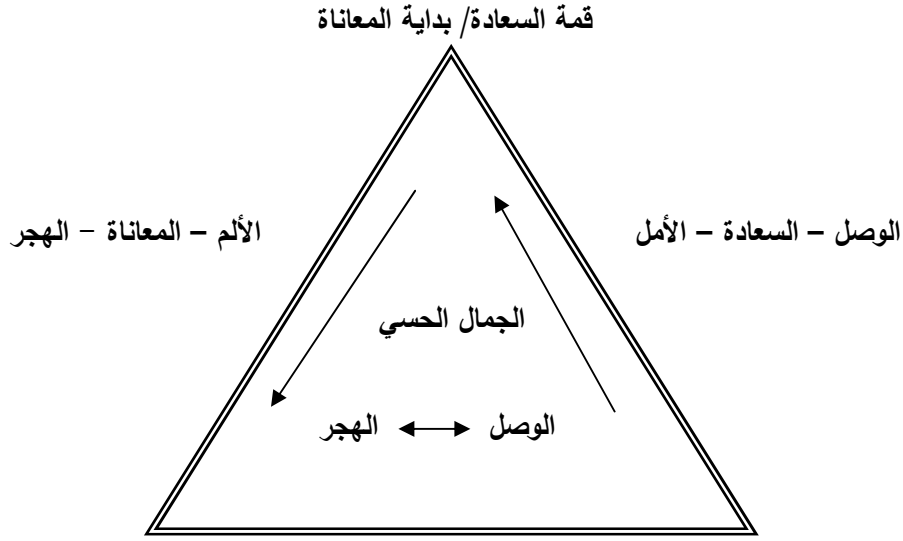

هذا المثلث يمثل الضلع الأيمن منه حضور ولادة الذي يوصل ابن زيدون الى قمة الهرم، ثم بداية النزول من الضلع الايسر الذي يمثل بداية المعاناة.

وبذلك تكون لفظتا (غبت، حضرت) الركيزة اللغوية والملمح الإضماري الذي يتكون عنه المعنى الاضماري، فحضور ولادة يمثله الشكل الآتي:

---

(١) ديوان ابن زيدون ورسائله، علي عبد العظيم:٢١٢.

(٢) ينظر: أثر ولادة في حياة ابن زيدون وفنه:سلمى الحفار:٣٠٣.

(٣) ينظر: بناء المفارقة:٥١.

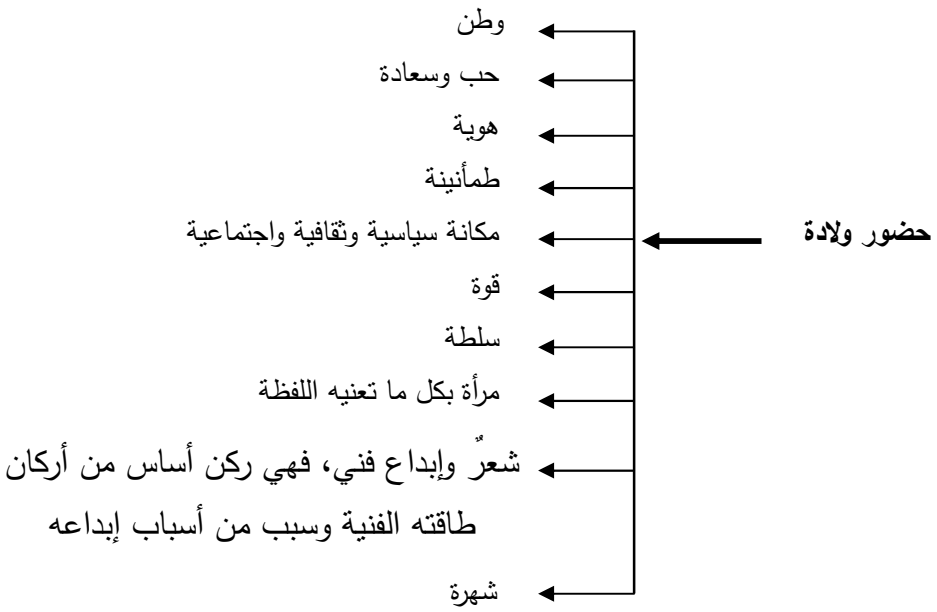

اما غيابها فيمثله الشكل الاتي:

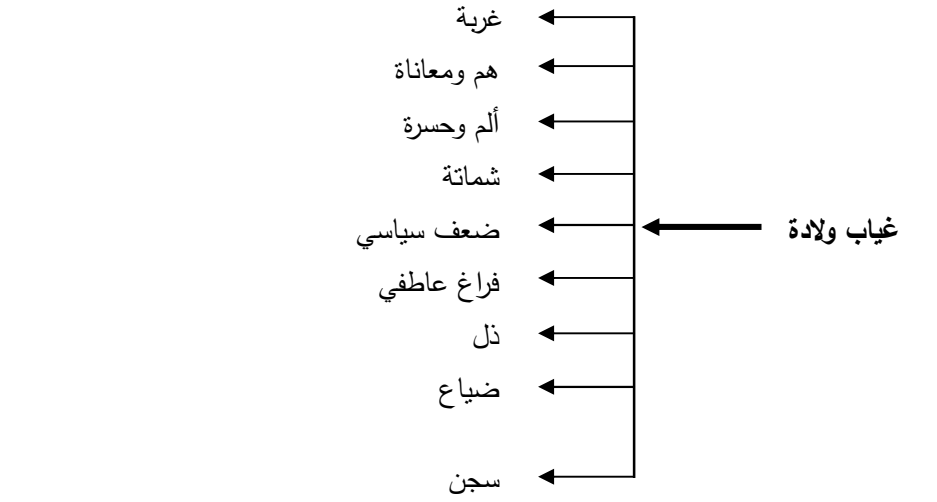

وكلمات ابن زيدون (غدوت به مشتهراً، غبت لم القَ، حضرت كل الناس حضرا) تحمل في ثناياها الرفض التام لكل معالم الحياة، فضلاً عن تحديه إياها، رفضه لكل ما يحيط به – غير ولادة – من مغريات الحياة بلذتها وجمالها – غير ولادة أيضاً.

فهو من دونها يجعل حياته قهراً وجوراً وظلماً فضلاً عن معاداته وتجاهله لكل من يحاول الحضور غيرها؛ فبغيابها تغيب معالم الحياة الانسانية كلها؛ لذلك فهو يؤسس لمملكة خاصة انطلاقاً من ذاته، تكون الحياة فيها ولادة، وتفنى هذه المملكة بغياب ملكتها وحياتها (ولادة) يبين ذلك الترسيمة الأتية:

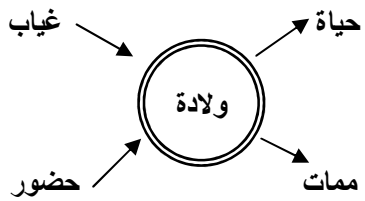

وفي نص آخر يقول [1]:

كمـا تَشـاءُ، فقُـلْ لـي، لسـتُ مُنـتَقِلاً، لا تَخـشَ منـيَ نِسـياناً، وَلا بَـدَلا

وَكَيـفَ يَنسـاكَ مَـنْ لَـمْ يَـدرِ بَعـدَكَ مـا طَعـمُ الحيـاةِ ، وَلا بالبِعـدِ عنـك سَـلا؟

أتلفْتَنـي كلفـاً، أبْليتَنـي أسـفاً، قَطّعتَنـي شَـغَفاً، أوْرَثْتَنـي عِلَـلا

إنْ كنـتُ خُنْـتُ وَأضْـمرْتُ السُّـلوّ، فـلا بلغـتُ يـا أملـي، مـن قُرْبـكَ، الأمَـلا

واللهِ ! لا علقَـتْ نفْسـي بغيـركُمُ؛ وَلا اتَّخَـذْتُ سـوَاكُمْ مـنكُمُ بَـدَلا

يحيل ظاهر النص هنا الى مسألتين: جاءت المسألة الاولى بوصفها مقدمة يقدم فيها ابن زيدون الولاء التام لمحبوبته ولادة ويخضع الخضوع التام لها، وإنْ هجرته أو لم ترضَ عنه فهو ليس منتقلاً غير متبدل مهما جرى. هذا التنازل والخضوع لا يكون بين حبيبين في لحظة ودهما وصفائهما، وهو ما يؤكد وجود ملامح للخلاف وإن أضمرها.

ان ابن زيدون في البيت الثاني أكد خفاء هذه الملامح من خلال اظهار شيء من معاناة النسيان، يقول:

وَكَيـفَ يَنسـاكَ مَـنْ لَـمْ يَـدرِ بَعـدَكَ مـا طَعـمُ الحيـاةِ ، وَلا بالبعـدِ عنـك سَـلا؟

وعلى تقدير همزة الاستفهام الانكاري يكون البيت:

أيَنسـاكَ مَـنْ لَـمْ يَـدرِ بَعـدَكَ مـا طَعـمُ الحيـاةِ ، وَلا بالبِعـدِ عنـك سَـلا؟

فيكون النسيان بذلك محالاً إن لم يكن هو الموت بعينه.

وتظهر في البيت الثالث ملامح هذا الخلاف، إذ يقول:

أتلفْتَنـي كلفـاً، أبْليتَنـي أسـفاً، قَطّعتَنـي شَـغَفاً، أوْرَثْتَنـي عِلَـلا

---

(١) ديوان ابن زيدون:٢٢٩.

لا يمكن لمحبوبة – تحب بصدق – أن تورث محبوبها علة؛ لأنها هي عينه فعلته علتها وتعبه تعبها، وبذلك يكون ابن زيدون قد أعلن عن مضمرهِ في البيتين الاول والثاني وهو ملامح الهجر، فتتمحور قيمة النص حتى البيت الثالث حول الهجر والقطيعة مع الخضوع والتذلل التام من قبله لولادة، ولو رسمت العلاقة بين ابن زيدون وولادة فإنها ستكون:

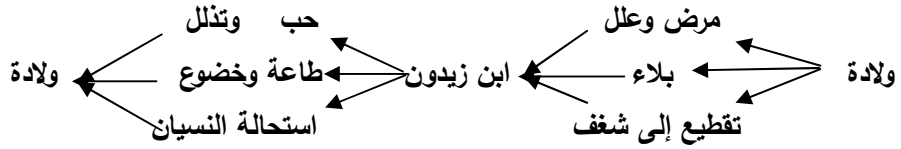

فتكون ولادة بذلك طرفي المعادلة اللذين يوجها حياة ابن زيدون كيفما يشاء ان، ثم يقول:

إنْ كنــتُ خُنْــتُ وَأضْــمرْتُ السُّــلوّ، فــلا بلغــتُ يــا أملــي، مــن قُرْبــكَ، الأمَــلا

فيكون اتهام ولادة لابن زيدون بالخيانة المضمر الذي أظهر السبب في كل ما سبق.

ومع ذلك فكيف يتذلل ابن زيدون المعجب بنفسه الذي " ذهب به الاعجاب كل مذهب، وهو عنده كل مطلب "[1]، ويخضع هذا الخضوع، حتى إنه يصرح بدعواه على نفسه ان كان خانها؟ إن ذلك لا يتوافق الا ورغبة ابن زيدون في ارضاء نفسه الطامحة الى المعالي، فكان حباً مريراً تكلل بفجيعة الهجر والألم اللذين لم يصرح بهما ابن زيدون، لأن خسران ولادة يعني خسران المكانة الثقافية التي كان يعيشها بقرب ولادة، وهو ما أكده تصرف الامير ابي الوليد بن جهور بإضافة منصب السفارة الى جانب الوزارة لأبن زيدون عندما رأى أن حب ابن زيدون لولادة قد أخذ يفتك بابن زيدون فتكاً شديداً حتى أخذ منه كل شيء[2]، فيكون هجر ولادة هو ما أضمره ابن زيدون وكان يخشاهُ. ثم يقول:

واللهِ ! لا علقَــتْ نفْســي بغيــركُمُ؛ وَلا اتَّخَــذْتُ ســوَاكُمْ مــنكُمُ بَــدَلا

مع ان ابن زيدون التقى ولادة بعد سن الثلاثين، وهذا سبب كافٍ لتكون ولادة ليست هي الحبيبة الاولى عنده، إلا أنه أكد ذلك، فهل تكون ولادة:

- الحبيبة الاولى بصدق المحبة؟
- الحبيبة الاولى مرتبة، وهذا يعني وجود امرأة أخرى في حياة ابن زيدون؟
- الحبيبة الاولى التي تذلل وخضع لها؟

ثم أن اتهام ولادة بالخيانة هل هو:

- حقيقة، فكان ما سبق من تذلل وخضوع شعوراً بالذنب؟

---

(١) الذخيرة: ابن بسام:١/ ٢٩١.

(٢) ينظر: ابن زيدون عاشق الاندلسي: موفق عبد الجبار:٣٧.

- أم محاولة منها للابتعاد عن ابن زيدون بعد أن صرح بحبه وعشقه لها وبلقاءاتهما المتكررة، وفشله في كتمان سر حبهما؟[١]
- اثارة ابن زيدون ليبقى متعلقاً بها؟

يؤكد التساؤلات المضمرة بشأن كون ولادة الحبيبة ليست الحبيبة الاولى قول ابن زيدون في نص آخر، وجهه الى ولادة الحبيبة أيضاً[٢]:

عـاودتُ ذكـرى الهـوى مـن بعـد نسـيانِ، وَاسـتحدثَ القَلـبُ شَـوْقاً بعـد سُـلْوَانِ

مِـنْ حُـبّ جارِيَـةٍ ، يَبْـدو بهـا صَـنَمٌ مِـنْ اللُّجَـينِ، عَلَيْـهِ تـاجِ عِقْيَـانِ

غَرِيـرَةٌ ، لَـمْ تُفَارِقْهـا تَمَائِمُهـا، تسـبي العقـولَ بسـاجي الطّـرْفِ وسـنانِ

لأسْـتَجِدَّنَ، فـي عِشـقي لهـا، زَمَنـاً يُنسـي سـوالفَ أيّـامي وأزمـاني

حتـى تكُـونَ لمَـن أحبَبـتُ خَاتِمَـةً ، نَسَـختُ، فـي حُبّهـا، كُفـراً بإيمـانِ

يؤكد ابن زيدون في " عاودت ذكرى الهوى من بعد نسيان " على وجود حب سابق قبل ولادة؛ فالنسيان في ضديته يدل على حب سابق، غير أن الحب الجديد (حب ولادة) كان سبباً لذكرى الحب السابق الذي نفاه ابن زيدون في القصيدة الاولى.

وفي البيت الخامس يجيب ابن زيدون عن التساؤل الثاني فيبين أن ولادة هي الحبيبة الاولى مكانة وليس مَرتَبة، عندما ينشئ لها زمناً خاصاً كما صرح بذلك في البيت الخامس، فيكون نص ابن زيدون الثاني حجة لصالح النص الاول وبيان مضمره، فضلاً عن أنه في هذا النص تجاوز اثبات مكانة ولادة الى وصف محاسنها وجمالها الذي تجاوز حدود شعره وإمكانيته وذلك في قوله:

غَرِيـرَةٌ ، لَـمْ تُفَارِقْهـا تَمَائِمُهـا، تسبي العقولَ بساجي الطّرْفِ وسنانِ

فتمائمها لازمتها لفرط حسنها وخشيةً عليها من أعين الحساد، لذلك كانت لفظة (التمائم) تكويناً كلياً يتجاوز به ابن زيدون حدود الوصف؛ ذلك أنه ترك تكوين صورتها وملامح حسنها ومواطنها مضمرة لقارئ النص وإن أظهر شيئاً منها في قوله:

مِـنْ حُـبّ جارِيَـةٍ ، يَبْـدو بهـا صَـنَمٌ مِـنْ اللُّجَـينِ، عَلَيْـهِ تـاجُ عِقْيَـانِ

---

(١) ينظر: ابن زيدون أثر ولادة في حياته وأدبه: وليم الخازن:٤٨.

(٢) ديوان ابن زيدون:٢٥٧.

" والصنم في معناه القريب هو ما يعبد من دون الله عز وجل، وهو اللوحة الفنية المنحوتة، أما المعنى البعيد فهو جسد تلك الجارية المصقول، وهو ما قصده الشاعر "[١]، وفي قراءة أخرى للقصيدة الثانية يتوجه النص صوب المحبوبة الاولى الجارية الغريرة، الحب القديم الذي ولى واندثر ولم يبقَ منه سوى ذكرى اعادها الحب الجديد، مع أنه حب مترع بصوت الشاعر كذلك وصبواته، فتكون الصورة التي تكونت عن حاملة التمائم صورة المحبوبة الاولى، بما تحمله من قيمة جمالية وفينة حملتها لفظة صنم، لتشكل صورة مضمرة للمحبوبة الجديدة (ولادة) تفوق الاولى وتتجاوزها مكانةً وجمالاً وهو ما أكده في قوله:

حتى تكُونَ لمَن أحبَبتُ خَاتِمَةً ، نَسَختُ، فِي حُبّها، كُفراً بإيمانِ

وكأن الزمن الاول زمن (كفر) يستحق أن تنسخ جاهليته بـ(ايمان) جديد خالص للحبيبة الجديدة الأولى مرتبة زمن يُخصَّص لها وحدها[٢].

وهذا ما يؤكد أن النص كتلة تتشظى عنها المعاني وتتعدد بتعدد القراءات والقراء[٣].

فضلاً عن هذا فإن ابن زيدون شكل لنا صورة مضمرة لولادة تكونت عن صورة المحبوبة الاولى؛ فالجارية، وإن بدأ بها، صنم من اللجين عليه تاج عقيان، تسبي العقول بساجي الطرف وسنان، غير أنها جارية وغريرة، وهنا تفضلها ولادة بكونها سيدة بلاط وبنت ملك، فضلاً عن جمالها الحسي الذي جعله يترك تلك الجارية، ويفضل ولادة عليها، التي ذكرت المصادر، أنها فضة خالصة، ذات شعر أشقر كالتبر، وهي بعيدة مهوى القرط، ممشوقة القوام، بارزة الصدر، دقيقة الخصر، رابية الردفين، فاتنة العين، رقيقة البشرة، صافية، فاتنة العينين حوراويتهما، مع أهداب وطف، وخال اسود عنبري في خدها[٤]. وابن زيدون هو القائل فيها[٥]:

رَبيبُ ملكٍ كأنَّ اللهَ انشأهُ مسكاً وقدر انشاءَ الورى طِينا
اوصَاغَهُ وَرِقاً محضاً وتوّجهُ من ناصع التِّبرِ ابداعاً وتحسينا

والقائل[٦]:

وفي السِيَرَاءِ الرَّقمِ وسط قِبابهم بعيدُ مَناطِ القُرطِ احوَرُ اوطف

---

(١) عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون، فوزي خضر، ١٦٢.

(٢) ينظر: بناء المفارقة، ١٢٩.

(٣) ينظر: المضمر في الخطاب الادبي غادة السمان نموذجاً: د. غسان السيد: نت.

(٤) ينظر: الديوان:٥٠، ابن زيدون: علي عبد العظيم:٤٦، الأدب الاندلسي: عبد المنعم خفاجي:٤٧١.

(٥) الديوان:١٧٠.

(٦) المصدر نفسه، ٥٢٦–٥٢٧.

تَبـــــايَنَ خَلقـــــاهُ فعَبـــــلٌ مُـــــنَعَّمٌ تـــأوَّدَ فـــي اعـــلاهُ لَـــدنٌ مُهَفهَـــفُ

فلِلعانـــكِ المُـــرتَجِّ مـــا حـــازَ مِئـــزرٌ وللغُصُـــنِ المُهتـــزِّ مـــا ضـــمَّ مِطـــرَفُ

وإذا ما عدنا الى القصيدة الاولى فإننا نجد أن ابن زيدون في الجزء الاول من القصيدة – الابيات الثلاثة الاولى – قد اكد على تكرار ملامح الهجر، فضلاً عن وصف معاناته في حال تم ذلك الهجر، وهذا التكرار محاولة منه لابراز نفسه عند ولادة والمتمثلة فيها، عسى أن لا يتم هذا الهجر؛ لأن التكرار يترك اثراً سمعياً في إذن المتلقي، ومن شأنه أن يعدله عن مبتغاه، هكذا اضمره ابن زيدون وجعل النص نصين يتضادان في دلالتهما؛ ففي الجزء الاول – الابيات الثلاثة الاولى – أضمر الهجر، في حين اظهر في الجزء الثاني– البيتين الآخرين – موضوع الخيانة واتهام ولادة له بها. ولعل من شأن اظهار امر الخيانة أن يؤكد حدوث الهجر والانقطاع التام عن اللقيا مهما كان سبب هذا الهجر ومهما كانت غايته، سواء عند ابن زيدون أو عند ولادة.

إن هذا التضاد في جزأي النص من شأنه أن يكسر الرتابة المتكونة عن الاستمرارية في بيان الظواهر المعتادة المتمثلة بـ:

خلاف ←— هجر ←— قطعية ←— فراق ←— ألم وتعب

ويكون قيمة جمالية وفنية للنص تمثلت في إضمار الظاهر وإظهار المضمر، فضلاً عما فيه من جمالية الانتقال من بنية نصية الى أخرى انتقالاً لفظياً ومعنوياً، بوساطة القرينة الهادية[١] (إن كنت خنتك) التي من شأنها أن تؤدي وظيفة أساسية في بيان المضمر صناعةً وتوجيهاً.

وإذ ننتقل الى قصيدة قالها ابن زيدون في مدح ابي الحزم بن جهور فإننا سنعمد إلى تقسيمها على ثلاثة أقسام نتناول في كل قسم منها على حدة مواطن الإضمار وأثره في الدلالة[٢].

هَـذا الصَـباحُ عَلـى سُـراكِ رَقيبـا فَصِـلي بِفَرعِـكِ لَيلَـكِ الغِربيبـا

وَلَـدَيكِ_ أَمثـال النجـومِ_قَلائِـدٌ أَلِفَـت سَـماءَكِ لَبَّـةً وَتَريبـا

لِينُـب عَـنِ الجَـوزاءِ قُرطُـكِ كُلَّمـا جَنَحَـت تَحُـثُّ جَناحَهـا تَغريبـا

وَإِذا الوِشـاحُ تَعَرَّضَـت أَثنـاؤُهُ طَلَعَـت ثُرَيّـا لَـم تَكُـن لِتَغيبـا

---

(١) ينظر: علم التخاطب الاسلامي، د.محمد محمد يونس علي:٦٧.

(٢) ديوان ابن زيدون:٤٠١-٤٠٢.

وَلَطالَمـــا أَبـــدَيتِ إِذ حَيَّيتِنـــا كَفّـاً هِـيَ الكَـفُّ الخَضـيبُ خَضـيبا

أَظَنينَـــةً دَعـــوى البَـــراءَةِ شَـــأنُها أَنـــتِ العَـــدُوُّ فَلِـــم دُعيـــتِ حَبيبـــا

مـــا بـــالُ خَـــدِّكِ لا يَـــزالُ مُضَـــرَّجاً بِـــدَمٍ وَلَحظُـــكِ لا يَـــزالُ مُريبـــا

لَـو شِـئتِ مـا عَـذَّبتِ مُهجَـةَ عاشِـقٍ مُســتَعذِبٍ فــي حُبِّــكِ التَعــذيبا

وَلَزُرتِـــهِ بَـــل عُدتِـــهِ إِنَّ الهَـــوى مَـــرَضٌ يَكـــونُ لَـــهُ الوِصـــالُ طَبيبـــا

مـــا الهَجـــرُ إِلّا البَـــينُ لَـــولا أَنَّـــهُ لَـم يَشـحُ فـاهُ بِـهِ الغُـرابُ نَعيبـا

وَلَقَـــد قَضـــى فيـــكِ التَجَلُّـــدُ نَحبَـــهُ فَثَـــوى وَأَعقَـــبَ زَفـــرَةً وَنَحيبـــا

وَأَرى دُمـــوعَ العَـــينِ لَـــيسَ لِفَيضِـــها غَـــيضٌ إِذا مـــا القَلـــبُ كـــانَ قَليبـــا

يشكل ابن زيدون في هذا النص صورة المحبوبة ولادة، التي تفضل النساء في جمالها ومكانها؛ ولأن فضلها النسوة أمر اعتاد عليه المجتمع الاندلسي يتجاوز ابن زيدون المفارقة بين ولادة المحبوبة وبقية النسوة، ليجعل من الطبيعة بما تتماز به من رموز جمالية هي المعادل الذي تتشكل من خلاله صورة ولادة، ويبين ذلك من خلال الجدول الآتي:

ولادة	الطبيعة
فرعها	الليل الغريب
قلائدها	النجوم
قرطها	الجوزاء
انثناء شيء من وشاح ولادة (ظهور شيء من جسدها)	الثريا

في هذه الاجزاء جميعها تفضل ولادة الرموز الطبيعية وتتجاوزها جمالاً ومكانة، ومع بداية البيت السادس يغير ابن زيدون طبيعة الخطاب من تشكيل صورتها الى شيء من العتاب مع بيان صورته بغيابها عنه أو هجرها إياه وذلك من قوله:

أَظَنينَـــةً دَعـــوى البَـــراءَةِ شَـــأنُها أَنـــتِ العَـــدُوُّ فَلِـــم دُعيـــتِ حَبيبـــا

الى قوله:

وَأَرى دُمـــوعَ العَـــينِ لَـــيسَ لِفَيضِـــها غَـــيضٌ إِذا مـــا القَلـــبُ كـــانَ قَليبـــا

أن يبدأ ابن زيدون قصيدته المدحية بمقدمة غزلية أسلوب تعارف عليه الشعراء وتداولوه في قصائدهم، ولكن أن يكون هذا الجزء من القصيدة غزلياً خالصاً صورة غير مستساغة، فمن المباشرة الممقوتة أن يعد التمهيد الغزلي لقصيدة الاعتذار والمديح خالصاً للتغزل في (ولادة) ومع ان الخطاب الشعري يمنح هذه الدلالة للوهلة الاولى كما سبق وبينا الا ان التأويل النقدي لن يقبل بذلك؛ لأن القصيدة موجهة في المقام الأول الى اميره الذي طالما استنكر علاقة ابن زيدون بولادة سليلة البيت الاموي الذي قام على انقاضه الحكم الجهوري، كما ان من غير المستساغ الوصل بين الجزء الغزلي من القصيدة وبقية أجزائها على اعتبار ان الجزء الغزلي مادة موروثة في تصدير قصائد الغزل[١]،الامر الذي يحتم قراءة النص قراءة أخرى تكون ولادة الحبيبة فيها رمزاً؛ ذلك أن ابن زيدون حين يريد " أن يعبر عن احساسه بالحزن الذي اعتراه من جراء الجفوة التي وقعت بينه وبين أميره الوليد بن جهور، فأن يلتقط رمزاً من الواقع المادي، وهو رمز المرأة – التي تشترك هي الاخرى مع الأمير في الجفوة بينها وبين المبدع – ويدخل هذه المرأة في عوالم مجازية مع الطبيعة عبر تقنية الصورة الشعرية معبراً بذلك عن تمنعها وجفائها له؛ مما يكسب هذه الصورة بعداً تأويلياً رامزاً الى العلاقة بين الشاعر والامير، فتغدو المرأة رمزاً للأمير، ويصير التصدير الغزلي لقصيدة الاعتذار مديحاً"[٢]، وهو ما اكده ابن زيدون في قوله[٣]:

محاســـنُ تندى رقائق ذكرها فتكاد توهمـــك المديح نسيبا

وبذلك يتأكد ان هذه المحبوبة ما هي الا " حبيبة رمزية أرادَ الشاعر أن يمهد بها للغرض الأساسي من القصيدة وهو المديح، فاراد ان تكون لها صفات فيها من صفات الممدوح ... لذلك ... هي مجموعة رمزية استدعتها التجربة الفنية في القصيدة "[٤]. يشكل بعدها ابن زيدون صورة ممدوحه وذلك في قوله[٥]:

ملـــــكٌ أطـــــاعَ اللهَ منـــــه موفّـــــقٌ مـــــــا زال أوّابـــــــاً مُنيبـــــــا

يـــــأتي رضـــــاهُ مُعاديـــــاً ومُواليـــــاً ويكـــــون فيـــــه مُعاقِبـــــاً ومُثيبـــــا

(١) ينظر: بناء المفارقة:٢١١، وابن زيدون عاشق الاندلس:٣٧.

(٢) بناء المفارقة:٢١٠-٢١١.

(٣) ديوان ابن زيدون:٤٠٥.

(٤) عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون:٤٣.

(٥) ديوان ابن زيدون:٤٠٣-٤٠٤.

مُتَمَـــــرِّسٌ بالـــــدهرِ يَقعُـــــدُ صَـــــرفُهُ إن قـــام فـــي نـــادي الخطُـــوب خطيبـــا

لا يُوسَمُ الرأيُ الفَطيـــرُ به ولا يعتـــــادُ إرســـــالَ الكـــــلامِ قضـــــيا

تـــــأبَى ضـــــرائبُه الضُّـــــروبَ نفاســـــةً مـــن أن تقـــيسَ بـــه النفـــوسُ ضَـــريبا

بسّـــام ثَغـــرِ البِشـــرِ إن عَقَـــدَ الحُبـــا فرأيـــت وضّـــاحاً هنـــاك مَهيبـــا

حتى يقول:

وإذا تَفَـــنَّنَ فـــي اللســـان ثنـــاؤهُ فـــافتَنَّ لـــم يكـــنِ المـــرادُ غَريبـــا

غـــالَى بمـــا فيـــه فَغَيـــرُ مُواقـــعٍ ســـرَفاً ولا مُتَوقّـــعٍ تكـــذيبا

ومع هذه الصفات كلها التي اضفاها ابن زيدون على صورة ممدوحه حتى " بالغ اللسان في مدحه ما وسعته المبالغة أمناً أن يكون مسرفاً في مدحه أو متهماً فيه فمآثر الأمير فوق المغالاة والاسراف "[1]، نجد صورة ابن زيدون المتروك في غياهب السجن ظلماً جراء الوشاة والحساد وذلك في قوله[2]:

مـــا لـــي وللأيَّـــام لَـــجَّ مـــعَ الصِّـــبا عُـــدوانُها فكســـا العِـــذار مشـــيبا

مَحَقَـــت هـــلالَ السّـــنِّ قَبـــلَ تَمامـــهِ وذوى بهـــا غُصـــنُ الشّـــباب رطيبـــا

لألَـــمَّ بـــي مـــالو ألـــمَّ بشـــاهقٍ لانهـــالَ جانبُـــهُ فصـــار كثيبـــا

فصورة الممدوح التي رسمها ابن زيدون لا تتوافق وصورة المبدع، وهذا ما يتضح في الترسيمة الاتية:

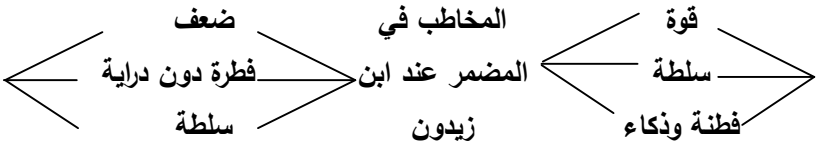

مما أكد استماع الامير لرأي الحاشية/ الوشاة وهو ذو الفطنة، فتكون الفطنة ملمحاً يحمل دلالة مغايرة تخرج المدح عن مفهومه الايجابي الى مفهوم سلبي يتوافق وتعجب الشاعر من الظلم الذي حل به في ظل بني جهور، فيكون جزاءُ ابن زيدون في اخلاصه وطاعته، اصرار ابن جهور على سجنه وظلمه بعد كل الذي قدمه.

---

(١) حاشية الديوان: ٤٠٥.

(٢) ديوان ابن زيدون: ٤٠٢-٤٠٣.

والنظر في الجزء الغزلي بوصفه تمهيداً للمديح في القصيدة من اشتراك المحبوبة ولادة والامير في جفوة ابن زيدون وكونهما المحور الذي تجري عليه العمليات الخطابية اللغوية التي انفلقت منها مجموع التأويلات لذلك مثل كل من ولادة والامير واسمات معينة ومخصصة حددت النص(١)، وما يحمل من مضامين ظاهرة ومضمنة.

وفي قصيدة أخرى يقول ابن زيدون(٢):

إنّـــي ذكرْتُـــكِ، بـــالزّهراء، مشـــتاقا، والأفـقُ طلـقٌ ومـرْأى الأرض قـد راقَـا

وَللنّســـيمِ اعْـــتِلالٌ، فـــي أصـــائِلِه، كأنـــهُ رَقّ لـــي، فاعْتَـــلّ إشْـــفَاقَا

والـرّوضُ، عـن مائِـه الفضّـيّ، مبتسـمٌ، كمـا شـقَقتَ، عـنِ اللّبّـاتِ، أطواقَـا

يَـوْمٌ، كأيّـامِ لَـذّاتٍ لَنَـا انصـرَمتْ، بتْنَـا لهـا، حـينَ نـامَ الـدّهرُ، سـرّاقَا

نلهُـو بمـا يسـتميلُ العـينَ مـن زهـرٍ جـالَ النّـدَى فيـهِ، حتـى مـالَ أعناقَـا

كَـأنّ أعْيُنَـهُ، إذْ عايَنَـتْ أرَقَـى ، بَكَـتْ لِمـا بـي، فجـالَ الـدّمعُ رَقْرَاقَـا

وردٌ تـألّقَ، فـي ضـاحي منابتِـهِ، فازْدادَ منـهُ الضّحى ، فـي العينِ، إشراقَا

سـرى ينافحُـهُ نيلـوفرٌ عبـقٌ، وَسْـنَانُ نَبّـهَ مِنْـهُ الصّـبْحُ أحْـدَاقَا

كـلٌّ يهـيجُ لنَـا ذكـرَى تشـوّقِنَا إليكِ، لـم يعدُ عنهـا الصّدرُ أن ضـاقَا

لا سـكّنَ اللهُ قلبـاً عـنّ ذكـرِكُمُ فلـم يطـرْ، بجنـاحِ الشّـوقِ، خفّاقَـا

لـوْ شاء حَملـي نَسيمُ الصّبحِ حينَ سرَى وافـاكُمُ بفتـىً أضـناهُ مـا لاقَـى

لـوْ كَـانَ وَفّـى المُنـى ، فـي جَمعِنَـا بكـمُ، لكـانَ مـنْ أكـرمِ الأيّـامِ أخلاقَـا

يـا علقـيَ الأخطرَ، الأسنى ، الحبيبَ إلـى نَفسـي، إذا مـا اقتنَـى الأحبـابُ أعلاقَـا

كـان التَّجـازي بمَحـض الـوُدّ، مـذ زمَـن، ميـدانَ أنـسٍ، جريْنَـا فيـهِ أطلاقَـا

فـالآنَ، أحمـدَ مـا كنّـا لعهـدِكُمُ، سـلوْتُمُ، وبقينَـا نحـنُ عشّـاقَا!

---

(١) ينظر: الخطاب اللساني العربي:١/ ٢٣٠، ٢٤٤.

(٢) ديوان ابن زيدون:١٦٢-١٦٣.

يحصل الإضمار " نتيجة عارض يصيب ادراك البنية اللغوية مقدرة كانت أم مركباً من الالفاظ، بمعنى أن الدلالة الخفية تحصل بسبب السياق اللغوي أو السياق الحالي للفظ "[١]، والعارض في هذه القصيدة جاء في البيت الاول:

إنّـــي ذكرْتُـــكِ، بـــالزّهراء، مشـــتاقا، والأفـقُ طلـقٌ ومـرْأى الأرض قـد راقَـا

فجاءت ذكرى ولادة في القصيدة البؤرة التي ترتكز عليها تأويلات القصيدة وقراءاتها المتعددة، فابن زيدون قسم الطبيعة في هذه القصيدة على قسمين: قسم يقاسي مع ابن زيدون معاناته ويشاركه آلامه وهي الطبيعة الوالهة[٢]،ويتمثل في قوله:

وَلِلنّســيمِ اعْــتِلالٌ، فــي أصــائِلِهِ، كأنـــهُ رَقّ لـــي، فاعْتَـــلّ إشْـــفَاقَا

وقوله:

نلهُـو بمـا يسـتميلُ العـينَ مـن زهـرٍ جـالَ النّـدَى فيـهِ، حتـى مـالَ أعناقَـا

كَـــأنّ أعْيُنَـــهُ، إذْ عايَنَـــتْ أرَقـــى ، بَكَـتْ لِمـا بـي، فجـالَ الـدّمعُ رَقْرَاقَـا

والقسم الثاني الطبيعة اللاهية البعيدة كل البعد عن ابن زيدون وحاله وقد تمثل في قوله:

إنّـــي ذكرْتُـــكِ، بـــالزّهراء، مشـــتاقا، والأفـقُ طلـقٌ ومـرْأى الأرض قـد راقَـا

والـرّوضُ، عـن مائِـه الفضّـيّ، مبتسـمٌ، كمـا شـقّقتَ، عـنِ اللّبّـاتِ، أطواقَـا

وردٌ تـــألّقَ، فـــي ضـــاحي منابتِـــهِ، فـازْدادَ منـهُ الضّـحى ، فـي العينِ، إشـراقَا

فتكون الزهراء بتضاد طبيعتها في أزهى صورها وأجملها.

وبذلك يتخذ ابن زيدون من الطبيعة أداة يجمع بها " بين الجانب العاطفي الذي يلملم فيه الشاعر بعض ذكريات حبة، ويفضي ببعض الشكوى لمحبوبته، والجانب الوصفي الذي يصور فيه ابن زيدون بعض مشاهد الطبيعة الجميلة في زهراء قرطبة التي كانت من قبل مسرحاً لحب الشاعر وسعادته بهذا الحب "[٣]، وابن زيدون في هذه القصيدة هو أحد أطراف ثلاثة تزدحم القصيدة بهم وتتشكل عنهم قراءة القصيدة، ويتبين ذلك في الترسيمة الأتية:

---

(١) الخطاب اللساني العربي: ١/ ٤٦.

(٢) هذه التسمية عن محاضرة للاستاذ الدكتور صالح ابو وائل: القاها على طلبة جامعة النجاح الفلسيطينة نت.

(٣) قصائد أندلسية، أحمد هيكل: ٨٣.،

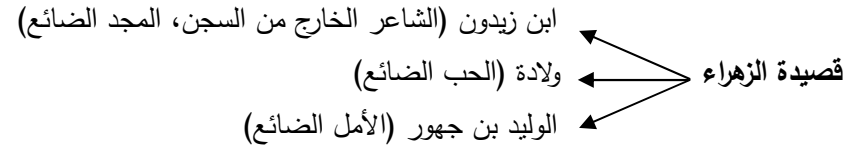

فتكون الاطراف الثلاثة بمجموعها ضائعة في لحظة، حاضرة في أخرى، وفي تضافر تام بين الماضي السعيد، والواقع، والآتي الذي يحمل الحزن والهم بسبب الفقر، لذلك حملت القصيدة جواً من التوتر والقلق نتجت عنه صورتا الطبيعة. وبذلك تتمثل الطبيعة في القصيدة، بابن زيدون تارة وولادة تارة أخرى والوليد تارة ثالثة، فهي إذا ما ابتسمت كان الحضور في الذاكرة، الذي يحمل:

- ماضٍ سعيد.
- حب ونشوة
- وزارة وملك.
- قوة وسلطة.

وإذا غابت عنه كان الحضور الواقعي، الذي يمثل:

- واقع مأساوي.
- فقدان الحبيب.
- مجابهة الواقع بكل ما يحمل من ضدية لابن زيدون.
- الصراع الذاكراتي ومحاولة إعادة كل الأمجاد الضائعة.

لذلك يقول:

لا سَـــكَّنَ اللهُ قلبـــاً عـــنَّ ذِكـــرِكُمُ فلـــم يَطِـــر بجنـــاحِ الشـــوقِ خَفّاقـــا

لـــو شـــاءَ حَملـــي نســـيمُ الصـــبّحِ حـــينَ سَـــرَى وافـــاكُمُ بفتـــىً أضـــنَاهُ مَـــا لا قـــى

لـــو كـــانَ وفّـــى المُنَـــى فـــي جمعنـــا بكـــمُ لكـــان مـــن اكـــرم الأيّـــام اخلاقـــا

إن ابن زيدون يصرح في هذه الابيات بضعفه التام – وهو الشاعر الوزير –وبأنه لم يبقَ له سوى الآمال التي تزاحمها الذكريات وما تحمل من الآم، تتمثل في الحاضر الكئيب الذي البس الطبيعة ثوباً من الشجو والحزن[1].

(١) ينظر: ملامح الشعر الاندلسي، د.عمر الدقاق:١٥٦– ٥٧.

فيكون هذا التضاد الصوري بؤرة جمالية تزداد جماليتها بازدياد المفارقة بين الصورتين وإن كان ابن زيدون قد جعل من منظر الطبيعة الجميل الفريد صورة للماضي المظلل بالسعادة التي كان ينعم بها سواء بقرب ولادة أو قرب بني جهور؛ إذ يقول:

يـــومٌ كأيَّـــام لـــذاتٍ لنـــا انصَـــرَمَت بِتنَـــا لهـــا – حـــينَ نـــامَ الـــدهرُ – سُـــرَّاقا

فيكفل " بذلك ابن زيدون تحقيق المفارقة بين الماضي الذي جاء بكل شيء جميل والحاضر الذي جاء أيضاً بكل شيء جميل لولا غيابها:

لـــو كـــان وفـــى المنـــى فـــي جمعنـــا بكـــم لكـــان مـــن أكـــرم الايـــام اخلاقـــا "[1]

وبذلك يكون ظاهر النص لوحة الزهراء بطبيعتها الخلابة عندما كان ابن زيدون يتجول بها ويحلم ويختبئ فيها شاعراً ومحباً ولا جئاً[2]، ومضمر استحضر فيه ابن زيدون الصورة الواقعة في الماضي كما وقعت وكما ظهرت ساعياً لماضي قد يجيء.

(١) الادب الاندلسي عصر الطوائف والمرابطين، د.احسان عباس:٢٠٢–٢٠٣.

(٢) ينظر: شعر الطبيعة في الادب العربي، د. سيد نوفل:٢٦٧ ، الادب الاندلسي، د.جودت د.جودت الركابي: ٢١٨، بناء المفارقة: ١١٩.

المصادر

- ابن زيدون، علي عبد العظيم، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧م.
- ابن زيدون أثر ولادة في حياته وأدبه، وليم الخازن، منشورات مكتبة الحياة، بيروت.
- ابن زيدون عاشق الاندلس، موفق عبد الجبار، دار الاداب والعلوم، بغداد.
- اتجاهات التأويل النقدي من المكتوب ... الى المكبوت، محمد عزام، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، سوريا، ط١، ٢٠٠٨م.
- أثر ولادة في حياة ابن زيدون وفنه، سلمى الحفار الكزبري، مجلة الكتاب، اتحاد المؤلفين والكتاب العراقيين ببغداد، عدد خاص بالذكرى الالفية لميلاد ابن زيدون، ع١١-١٢، الرباط، ١٩٧٥م.
- الأدب الاندلسي، محمد عبد المنعم خفاجي، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢م.
- تاريخ الادب الاندلسي، عصر الطوائف والمرابطين، د.احسان عباس، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الاردن، ط١، ١٩٩٧.
- الاستلزام الحواري في التداول اللساني، العياشي ادراوي، منشورات دار الاختلاف/ دار الزمان الرباط، الجزائر، الجزائر، ط١، ٢٠١١م.
- الاقتضاء: دلالاته وتطبيقاته في أسلوب القرآن الكريم، د.اشواق محمد اسماعيل النجار، دار دجلة، المملكة الاردنية الهاشمية، ط١، ٢٠٠٧م.
- انساق التداول التعبيري، د.فائز الشرع، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ٢٠٠٩م.
- بناء المفارقة دراسة نظرية تطبيقية أدب ابن زيدون -انموذجاً-، د.أحمد عادل عبد المولى، مكتبة الآداب، القاهرة، ط١، ٢٠٠٩م.
- تجربة السجن في الشعر الأندلسي، رشا عبد الله الخطيب، المجمع الثقافي، ابو ظبي، الامارات العربية المتحدة، ط١، ١٩٩٩م.
- الخطاب اللساني العربي هندسة التواصل الاضماري من التجريد الى التوليد المعاني المضمرة وفق انحائها الملائمة، بنعيسى عسو ازاييط، دار الكتاب الحديث، اربد، الاردن، ط١، ٢٠١٢م.
- دلائل الاعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، ط٣، ١٩٩٢م.
- ديوان ابن زيدون ورسائله، شرح وتحقيق: علي عبد العظيم، مراجعة: د.محمد إحسان النعيمي، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤م.
- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام علي الشنتريني، ت٥٢٣، تحقيق: د.احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ١٩٧٩م.

– شعر الطبيعة في الادب العربي، د. سيد نوفل، مطبعة شركة مساهمة مصرية، القاهرة، ١٩٤٥م.

– علم التخاطب الاسلامي–دارسة لسانية لمنهاج علماء الاصول في فهم النص–، د.محمد محمد يونس علي، دار المدار الاسلامي، ط١، ٢٠٠٦م.

– عناصر الابداع الفني في شعر ابن زيدون، مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للابداع الشعري، الكويت، ٢٠٠٤م.

– في الادب الاندلسي، د.جودت الركابي، دار المعارف، القاهرة، ط٦، ٢٠٠٨.

– قصائد أندلسية، أحمد هيكل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٩م.

– لسانيات الخطاب مباحث في التأسيس والاجزاء، أ.د.نعمان بوقرة، دار الكتب العليمة، بيروت، ط١، ٢٠١٢م.

– المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغوتو، ت: محمد بحياتين، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٨م.

– المضمر في الخطاب الأدبي، غادة السمان نموذجاً، د.غسان السيد، نت .

www.palmoon.net\2\to Plc-3796 – 84.html.

– ملامح الشعر الاندلسي، د.عمر الدقاق، دار الشروق العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٢م.

– موسوعة النحو والصرف والاعراب، اميل بديع يعقوب، منشورات دار العلم للملايين، طبعة طهران، ١٩٨٨م.

– نحو نص نقد النظرية .... وبناء أخرى، د.عمر ابو خرمة، عالم الكتب الحديث، اربد الاردن، ط١، ٢٠٠٤م.

– الهجر والوصل في غزليات ابن زيدون –دراسة في الثنائيات–، سرور أحمد محمد أمين السويري، رسالة ماجستير، كلية اللغات، جامعة صلاح الدين، إشراف: أ.م.د.علاء الدين محمد رشيد،٢٠٠٧م .

Some Aesthetics Aspects of the Arabic linguistic Discourse in the poetry of Ibn Zaydoon
- Al Idmar as a Sample -

Dr. Saleh Ways Mohammed

University of Mosul / College of Education for Human Sciences

Abstract

Aladmar without to emerge ; Valasttar exists and there is no evidence it is estimated without otherwise ; being a specific estimate , but Aladmar the absence without obligation , and be in the text out of context , or than one occasion to say , the interpretation is understood from the context , it is estimated to understand the recipient of this text and Uthoppe on the surface of the self , or absence of prominence.

And Aladmar , absent him necessary that define a literal meaning in it, being based in the show means a set of nods and features of the content implicit in it meaning; so it is a strategic course to derive the desired meanings not Ihds automatic but Bastdalal logical varies according to the colors Aladmar and come to what is underlying in with the speaker and the addressee of the variables lead role directed first to the text, shall be allocated to sense the public and potential read beyond meaning prominent in the phrase linguistic , surpassing the measurement Suri and fixed rules of significance , through the rules changing , which stems from the intensity of contents and anchorage and multiple prospects .